خيانة عسكره وأنهُ لا يقدر على عدوّه طلب الهرب ليفوز بنفسهِ فقتلهُ رجل كان تحت يده . فزالت بذلك دولة الشيخ ظاهر في برية الشام ومصر . وذلك سنة ١٧٧٦ على ايام السلطان عبد الحميد بعد ما كان الشيخ ظاهر يحكم على البلاد مدة اربعين سنة فقلّد السلطان جزار باشا ولاية عكا وصيدا

« انتهت الرسالتان »

بيروت

اخبارها وآثارها

للاب لويس شيخو اليسوعي (تتمّة)

بيروت في القسم الاخير من القرن العشرين الى يومنا (١٨٦٠—١٩٢٦)

الباب الثالث : بيروت الادبيّة (تتمّة)

وفي ختام هذا الباب يسرُّنا ان نذكر انشاء اوّل مكتبة عموميّة في بيروت . كان الساعي الى تحقيق هذا الامر الخطير جناب الفيكنت فيليب دي طرّازي بعد الحرب الكونيّة بمساعدة رجال الانتداب الفرنساوي لاسيما الجنرالَيْن الكبيرين غورو وثيفنان . وقد تكلّف جناب منشئ العمل عناء ومشاقّ كبيرة ليخرج فكرهُ الى حيز الوجود وتجشّم الاسفار الى فرنسة فاستوهب كثيرًا من مصنفات علمائها فزان بها هذا المعهد الجديد وقد اصبح البيروتيّون مَدينين لعنايته في هذا المشروع الجزيل الفائدة

على انَّ بيروت لم تخلُ بعد السنة ١٨٦٠ من مكاتب اخرى خصوصية كان العلماء يمكنهم استرخاص اصحابها لمطالعة كنوزها الادبيّة نزيد خصوصاً مكتبة الكليتين الاميركيّة واليسوعيّة فالاميركيّة احتوت نحو ٢٠٫٠٠٠ مجلّد كان يغلب عليها الكتب

العلميَّة لاسيَّما الانكليزيَّة . وكان بينها عدَّة كتب عربيَّة من مطبوعات سوريَّة ومصر ونحو خمسين كتاباً من المخطوطات العربية

واحدثُ منها مكتبة كلية القديس يوسف اليسوعية تألفت اوَّلاً في مدرسة غزير ثمَّ نُقلت الى بيروت سنة ١٨٧٥ . ولم تزل تنمو وتتَّسع حتى ضاقت بها خزائنها وقُسمت الى قسمين قسم غربي وقسم شرقي يحتوي اليوم كلّ منها نيفاً وثلثين الف مجلَّد هذا فضلاً عن مكتبة اخرى مدرسيَّة ومكتبة هندسيَّة ومكتبة حقوقيَّة ومكتبة طبيَّة بلغ مجموع كلّ هذه المكاتب نحو ١٤٠٫٠٠٠ مجلَّد يضاف اليها ما ينيف عن ٣٫٠٠٠ مخطوط في اللغات الشرقية الكلدانيَّة والسريانيَّة والفارسيَّة والتركيَّة والارمنيَّة والقبطيَّة والحبشيَّة ولاسيما العربيَّة في كل صنف من اصناف العلوم الدينيَّة والادبيَّة والتاريخيَّة والطبيعيَّة والرياضيَّة جُمعت من كلّ انحاء الشرق من سوريَّة ومصر والعراق والعجم والهند

وحفلت ايضاً في هذه الحقبة الاخيرة من تاريخ بيروت مكاتبُ الكُتبيين فكان اولهم المرحوم ابراهيم صادر منشيء المكتبة العمومية سنة ١٨٦٣ ثمَّ تنافس النصارى والمسلمون في فتح مكاتب اخرى فانشأ الاوَّلون المكتبة الادبيَّة والمدرسيَّة والعلميَّة والجامعة والوطنيَّة وانشأ الآخرون المكتبة الاهليَّة والانسيَّة والعصريَّة . وكان معظم هذه المكاتب تقتصر على بيع المطبوعات الوطنيَّة السوريَّة والمصريَّة وقلَّما تستحضر المطبوعات الشرقيَّة الجليلة المطبوعة في اوربَّا

الباب الرابع : بيروت الاقتصاديَّة

ليست مدينةٌ نالها من الرقي الاقتصادي ما نال بيروت من السنة ١٨٦٠ الى عهدنا فانَّ الوسائل المتعدِّدة التي أُنشئت في هذه المدَّة لتعزيز تجارة بيروت وترويج معاملاتها مع الداخليَّة ومع البلاد الاجنبيَّة وتحسين امورها الصحيَّة بلَّغتها درجةً من التقدُّم لم تعرفهُ في الاجيال السابقة حتى في عزّ مجدها في عهد الرومان . والفضل في ذلك كما هو معلوم للدول الاجنبيَّة ولاسيَّما لفرنسة

﴿الطُّرق والسكك الحديدية﴾ واوَّل ما سمح لبيروت ان توسِّع نطاق اعمالها الطريق التي نالت شركة افرنسية سنة ١٨٥٧ الرخصة بفتحها بين بيروت ودمشق وقد

نجزت بنشاط وهمّة المسيو دي پرتوي (M. de Perthuis) سنة ١٨٦٣ فكانت عربات الشركة تقطع تلك المسافة كل يوم باثنتي عشرة ساعة فاصبحت بيروت فرضة دمشق . وهذه الطريق بعد اصلاحها لا تزال الكارّات تنقل عليها البضائع وتقطعها العربات ذهاباً وايابا واليوم أصبحت تمرّ السيّارات والاوتومبيلات التي بثلث ساعات تقطع تلك المسافة البالغة ١١٠ كيلومترات

على انّ تلك الطريق مع فوائدها الجمّة لم تكن لتفي بحاجات التجارة . حتى تألّفت شركة أخرى عثمانيّة بالاسم فرنسويّة بالفعل فباشرت بالسكة الحديدية في اواخر سنة ١٨٩٢ بين بيروت ودمشق ثمّ دُشّنت في شهر آب سنة ١٨٩٥ . وهذه الطريق ضيّقة الاسلاك مسنّنة يبلغ طولها ١٩٠ كيلومترًا وتبلغ الى ١٤٨٦ مترًا في اعالي لبنان وقد أدّت لبيروت خدماً لا تُحصى لاسيّما اذ اتّصلت بسكة دمشق الى مزيريب وحوران التي كانت نجزت سنة ١٨٩٤ ثمّ اتّصلت بسكة رياق الى حماة وحلب (١٩٠٢ــ١٩٠٦) وبسكّة الحجاز وفرعها الى حيفا

ثمّ فُتحت عدّة طرق للعجلات في لبنان في سواحله وأعطافه اتّصلت كلّها ببيروت فزاد بذلك نفوذها وخصوصاً لمّا أُنشئت طريق الترامواي سنة ١٨٩٨ بينها وبين المعاملتين . والامل معقود بان تمتدّ هذه الترامواي الى طرابلس شمالًا والى صيداء جنوباً بل تتّصل بسكة حيفا فتصبح بيروت على قاب قوسين من فلسطين ومصر

وفي الوقت عينه نالت شركة بلجكية تسيير عجلات الترامواي في انحاء المدينة فتقرّبت المسافات بين اطراف البلد حيث تسير من نهر بيروت الى المنارة ومن فرن الشبّاك والبسطة الى نواحي البحر . فزاد بذلك عدد العائدين من لبنان فيستوطنون بيروت او يتردّدون اليها

﴿المرفأ﴾ وكما انّ بيروت مَدينةٌ لفرنسة بانشاء الطرق المتّصلة بها كذلك يعود الى فرنسة الفضل بفتح مرفإها الواسع . فانّ المرحوم يوسف بك مطران باع من شركة طريق الشام الفرنسويّة الرخصة التي نالها لذلك بفرمان الدولة التركيّة سنة ١٨٨٧ فتألّفت لجنة لمباشرة العمل برأس مال يبلغ خمسة ملايين فرنك فابتدأوا بالعمل سنة ١٨٨٩ جرياً على رسم المهندس غارينا (M. Garetta) وقد تمّ فقط في السنة ١٨٩٥ لما لقيته الشركة من العوائق من جهة تركيّة وعمّالها . وسعة المرفإ تبلغ ٢٦ هكتارًا وعمقهُ من

ثانية امتار الى ١٢ متراً في وسطه ومن ٣ الى ٥ امتار قريباً من الرصيف . فيمكن كبار السفن ان تدخل وسطهُ لكنها لا تستطيع ان تفرغ السلع توًّا على الرصيف . وبقيت الشركة عدة سنين لا تربح من واردات المرفأ ما كانت تؤمله لارتفاع التعرفة المفروضة على المراكب الراسية فيه . ثمَّ تحسَّنت امورها وزاد اقبال الشركات التجارية على الرسوّ في المرفأ . وبعد ان خمدت حركتهُ في أيام الحرب عاد اليوم الى نهضة جديدة حتى مسَّت الحاجة الى توسيعه والشركة حاضرة تهتمّ بذلك ولا يلبث المرفأ ان يجاري اكبر مرافئ البحر المتوسط . وله في رأس بيروت منارة جميلة بناها سنة ١٨٦٢ مهندسون فرنسويون

﴿ جرُّ مياه نهر الكلب ﴾ كانت بيروت تستقي مياهها من آبارها الواسعة التي اليها يُنسب اسمُها ولا تزال آثارها باقية حتى عهدنا . إلَّا انَّ تلك الآبار مع وفرتها لم تكن لتكفي لحاجات المدينة من شرب ونظافة وسقي جنان ورشّ طرقات . ثمَّ انَّ تلك الآبار المجموعة من الامطار كانت تجري اليها مياهٌ ملوَّثة بالجراثيم الفاسدة التي كانت تنشر بين اهاليها من وقت الى آخر الاوبئة الجارفة من حُمَّيات تيفوئيدية وهيضة وحمراء اصفر وطاعون

وكان اوَّل من فكَّر في تموين بيروت بالمياه المهندس الفرنسوي المسيو تفنين (M. Thévenin) فألَّف لذلك شركة بدأت باستحضار لوازم العمل سنة ١٨٧٥ وبناء حواجز وأقنية عند نهر الكلب على ١٣ كيلو متراً من بيروت وادوات لتصفية المياه ودفعها الى خزَّان على مقربة من كنيسة مار متري . وفي السنة ١٨٧٦ خلفتها شركة انكليزية لمواصلة هذا العمل واستثماره بعد ان باعهُ منها المسيو تفنين . فتولَّى الانكليزي مرتندال (M. Martindale) تدبيرها برأس مال بلغ ٣٫٦٢٨٫٨٠٠ فرنك . واخذت توزّع المياه على بيروت سنة ١٨٨٤ . فكانت هذه النعمة من اكبر نعم الله على المدينة واهلها فكفَّ عنهم معظم الاوبئة الفاشية . وما مرَّ على الشركة خمس عشرة سنة حتى بلغ ربحها السنوي الخالص ٢٥٠٫٠٠٠ فرنك . ثمَّ زاد على ذلك فجدَّدت رخصتها عند نهاية معاهدتها . وبعد الحرب اقامت خزَّاناً جديداً فوق الاشرفيَّة بحيث تستطيع رفع المياه الى اعلى بيوت بيروت وجباتها

﴿ الغاز والكهرباء ﴾ ومما زاد في محاسن بيروت انشاء شركة الغاز التي نفت

نوعاً من ظلمات بيروت ثمّ عقبتها شركة الكهرباء التي جعلت لبيروت حظّاً جديداً من الحضارة العصرية

﴿التجارة﴾ انّ رقيّ البلاد الذي يُعرف خصوصاً بتجارتها ومن هذا القبيل قد بلغت بيروت مبلغاً لا تجاريها فيه غيرها من مدن الشام منذ السنة ١٨٦٠ . فانّ السفن الاجنبيّة كانت تنقل اليها كلّ محصولات الدول الاوربية ومصنوعات اهلها من كل صنف من اصناف الاعمال والمخترعات الحديثة في ضروب الفنون . وكانت هي من جهتها ترسل الى انحاء البلاد كلّ صادرات بلاد الشرق التي كان تجّار الداخليّة يرسلونها الى بيروت فتُنقَل منها الى البلاد الغربيّة . وقد سبق انّ تجارة بيروت كانت في القسم الاوّل من القرن التاسع عشر راجت رواجاً كبيراً فبلغت الواردات اليها نحو ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ من الفرنكات والصادرات منها نحو ١٦٫٠٠٠٫٠٠٠ فلما بُني مرفأها ونجزت سكّتها الحديديّة حتى بلغت بعد حين ضعف هذه الكميّة .

وقد ساعد على هذا النجاح انشاء المصارف (البنوكة) في مقدّمتها البنك العثماني وبنوك اخرى منها اجنبيّة ومنها وطنيّة كانت تُسلف المال للتجار بفائدة معلومة فتمكّنهم من توسيع نطاق اشغالها . ثمّ اخذت عدّة بيوت تجاريّة وطنيّة تتوسّط لاستحضار السلع الاوربيّة بصفة كوميسيونجيّة

وكذلك حصلت معاملات مع بيوت تجاريّة في حواضر الدول الاوربيّة كانت تُبادل محصولات بلادها من محصولات الشرق

وبعد ان خمدت الحركة التجاريّة في ايام الحرب تحسّنت نوعاً بعد وضعها أوزارها . وقد استفادت بيروت خصوصاً من المعرض الذي أُقيم فيها سنة ١٩٢١ حيث ظهرت للعيان اصناف محصولات الوطن مع محصولات البلاد التي تعامل سوريّة . ولولا الازمة الاقتصاديّة التي تشمل حاضراً انحاء المعمور وهبوط سعر الفرنك والفتنة الدرزيّة لكانت بيروت في اوج الحضارة والدليل عليه ان الاحصاء الرسمي في السنة السابقة للحرب ذكر ان الواردات التجاريّة لسوريّة بلغت ١٢٥٫٠٠٠٫٠٠٠ فرنك والصادرات ٦٠٫٠٠٠٫٠٠٠ أمّا في السنة ١٩٢٠ بعد الحرب فازدادت الواردات الى ٤٢٩٫٠٠٠٫٠٠٠ ف والصادرات ٨٠٫٠٠٠٫٠٠٠ ولنا على ذلك شاهدٌ في حركة مرفإ بيروت الدالّة على نجاح متواصل وارباح وافرة حتى في السنة الحاضرة

﴿ الصناعة والزراعة ﴾ استفادت الصناعة في بيروت بما اتاها في هذه السنين الاخيرة من الادوات الاوربية ومن محصولات البلاد. فأنشئت فيها وفي جوارها معامل الحرير التي اخذت تسير في تحليل الحرير على اسلوب الفرنج

ومثالها الحياكة والتطريز للمنسوجات قد كان للطرائق الاوربية تأثير محسوس في صناعة هذه الانسجة لاسيما بواسطة راهبات المحبة اللواتي انشأن معملين سنة ١٨٦٢ فبلغ من استحضار نحو ٥٠٠ متر من الانسجة الحريرية البسيطة او الملوّنة

وكذلك اشغال الخروجة والدانتلات اتّسعت في بيروت حتى بلغ ما أُرسل منها الى اميركة قبل الحرب ما يساوي ٢٠٠،٠٠٠ ليرة

وأنشئت ايضاً معامل لاثاث البيوت واجهزتها الفاخرة اخصّها في بيروت محلّ الخواجا تزّي ومعمل الخواجا الياس السيوفي الذي استحضر لذلك الادوات المخترعة في اوربّة واميركة

ودخلت بيروت معامل أُخرى مستحدثة على الاساليب الاوربية كالطاحن البخارية وكمامل الجليد الاصطناعي ومعامل اقانيف التبغ والمعامل الفخّارية وتجدّدت كذلك السكافة والحدادة والنحاسة وتوفّرت فيها الدرّاجات والسيّارات والاوتومبيلات

وكذلك اشتغل اصحاب البناء في بيروت بكل لوازم هذا الفنّ من انشاء مقالع واستحضار ضروب الحجارة الوطنيّة والاجنبيّة وحمل الرخام ونقشه وصنع الكلس والقرميد ولنا عدّة آثار بنائيّة تشهد لاهلها بحسن الذوق وصواب النظر لتطبيقها على المظاهر الجوّيّة من حرارة وبرودة وهبوب الرياح ومناظر بهجة بينها قصور فخمة ودور امراء وبنايات شرقيّة الهندسة كساعة بيروت واسواقها الحديثة

وما قولنا عن المطابع فانّها بعد السنة ١٨٦٠ تعدّدت فاناف عددها على الثلثين كانت في مقدّمتها مطبعتنا الكاثوليكيّة والمطبعة الاميركانيّة مع ما أُلحق بهما من المطابع الحجريّة والادوات لاستحضار الايهات والامّهات ولسبك الاحرف. وذلك ما جعل لبيروت شهرة واسعة في البلاد بحسن مطبوعاتها وجمال حروفها

وكلّ يعرف اتّساع فنّ التصوير الذي قبل السنة الستين لم يكد يُعرَف له اثر في بيروت واليوم اصبح شائعاً حتى انّ بعض المجلّات تصدر اليوم فيها مصوّرة باتقان ورُبّما عُرضت هذه الصور في معاهد السينما

على انَّ كل هـذه الصنائع مع ترقيها لا تزال في احتياج الى مزيـد التحسين لتجاري المصنوعات الاوربيَّة

امَّا ﴿ الزراعة ﴾ فانَّ نصيبها دون نصيب الصنـاعة في الترقي وان لم تُحرَم منهُ تماماً . فانَّ حدائق بيروت واراضيها المزدرعة قد زادت خصباً بما استمدَّتهُ من مياه نهر الكلب المسقي . وكذلك مياه اخرى تجري الى المزدوعات من نهر بيروت وبعض العيون المجاورة للبلدة . وهذا ما وفَّر البقول والحبوب في اسواق المدينة

وقد نمت خصوصاً في بيروت وارباضها انواع الاشجار المثمرة فترى وسطها وحولها اصناف الاشجار المثمرة منها الاثمار الوطنيَّـة كالليمون والتفَّاح والاجَّاص والمشمش والدراقن والتين والخرنوب . ومنها اجنبيَّة تأهلت منذ بضع سنوات في تربة بيروت بعد ان انتقلت اليها من البلاد الغربيَّة او من امريكة كالموز والمـاندارين (يوسف افندي) والقشطة والتوت الفرنجي (fraises) والاكي دنيا

ومن اشجار بيروت التي تزين سواحلها شجر الزيتون الـذي يمتدُّ جنوبيهـا الى بضعة اميال و يُستخرَج منهُ زيتها الفاخر . وكذلك الكروم التي تظلّل تلالها ومن عصير ثمارها الخمر البيروتيَّة التي اشتهرت منذ عهد الرومان

وعلى رأسها تتمايل اشجار النَّخل بسَعفها المرموز بهِ الى الظفر . وفي جهتها غابات الصنوبر التي تغنَّى بها قدماء الشعراء

فمن تعدُّد اصناف هذه الاشجار يلوح غنى تربة بيروت . لولا انَّ المزارعين لشبوتهم على اساليب الحراثة القديمة لا يحصلون على ما ينالهُ ارباب الزراعة في اوربَّة بتراعاتهم للاصول الفنيَّة التي وقفوا عليها بالتجربة ودرس احوال التربة واصلاحها

هذا مُجمل ما يقال عن بيروت الاقتصاديَّة . ولا شكَّ بانَّ عاصمـة لبنـان مع الامان وانتظام الاحوال وهمَّة ارباب الاعمـال جديرة بان تُصبح من اغنى بلاد الله وتجاري اكبر المُدن بخصبها ورفاهها زادها تعالى رقياً وغزراً وهو السميع المجيب

(تمَّ)

﴿ تنبيه ﴾ انَّنا قد عوَّلنا على نشر هذا التاريخ على حدة فنضيف اليهِ الفهارس اللازمة